

باب الفقه في احكام الدين

﴿ كلمة ثانية في أهل الذمة ﴾

هذه المقالة منقولة عن الجزء الثالث من تاريخ (أشهر مشاهير الإسلام) لرفيق بك العظم وهو تحت الطبع . وله كلمة أخرى في حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة في الجزء الثاني من الكتاب . وقد أورد هذه الكلمة بمناسبة كتاب من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يوصيه فيه بأهل العهد والذمة ويذكره بوصية النبي بهم عامة وبالقبض خاصة ومن ذلك حديث « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة »

هذا الكتاب يمثل لنا سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة ويبين شدته على العمال في منعهم عن إيذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وعملا بأمره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيحقل ان يريد بهم اذى بقول أو فعل ؛ كلا ان العقول والبديهة يرفضان نسبة أي قول أو فعل إليه يشتم منه ولو رائحة الجفء فضلا عن امتهان الذمي أو ظلمه .

وإذا علم هذا فالذي يدعو إلى المعجب هو غفلة نقلة الأخبار ورواها عن

مقاصد عمر (رض) التي هي مقاصد الشرع الاسلامي الذي جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جمع المتناقضات من الاخبار ونقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحتها من كاذبها وبدون تروفي النافع والضار منها

كتبنا في الجزء الثاني فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزي في ان عمر تقدم الى أحد عماله بمختم رقاب أهل الذمة بالرصاص (١) وأبنا ثمة وجه الضعف في هذا الخبر وعجبنا من مثل ابن الجوزي كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع انه ليس في الدرجة التي تؤلم النفس اذ لو صح لحمل على قصد سياسي أو اداري على تعبير المتأخرين يراد به ضبط احصاء أهل الجزية من الذميين لامتثالهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الاسلام كالرومان والفرس الذين ثبت انهم كانوا يضربون على الرعية الجزية وربما كانت هذه العادة متبعة عندهم في احصاء أهل الجزية وقد زاد عجبنا اضماقا الآن اذ رأينا هذا الخبر في الخطط نقله صاحبها المقرئ عن ابن عبد الحكم بزيادة أحر بها ان تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب رضي الله عنه واذ قلنا بوهن الرواية الاولى في جانب المقال وهي لأحد حفاظ الحديث فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . واليكها بنصها مع الزيادة التي أوردتها المقرئ قال :

كان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه وكانت قرية مصر لحفر خلعها واقامة جسورها وبناء قناطرها وتطمع

(١) المراد بمختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من الرصاص كما

جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً (أي من العمال) مهمم الطور والمساحي  
والأداة يمتقبون ذلك لا يدعون ذلك صينياً ولا شتاء . ثم كتب إليه عمر  
ان تحتم في رقاب أهل الذمة بالرضاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيمهم  
ويركبوا على الأكف ( جمع أكف وهو البردعة ) عرضاً ولا يضربوا  
الجزية الأعلى من جرت عليه المواسي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان  
ولا يشبهوا بالمسلمين

فانظر أيها العاقل الى هذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذي يوصي  
فيه عمرو بن العاص بأهل الذمة هل تجهد بينهما التاماً بالوجهة ؟ أم بينهما  
من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا في الجزء الثاني ضعف  
أمثال هذه الاخبار بما فيه الكفاية وانما عدنا اليها الآن لامر ظهر لنا بعد  
البحث والروية : وهو ان واضعي هذه الاخبار انما ألجأهم لوضعها أمران  
الامر الاول ان الشؤون الادارية وأهدبا دواوين الخراج كانت  
تناط في أكثر الاوقات بأهل الذمة بل استمرت تكتب بلغتهم أيضاً  
الى عهد عبد الملك بن مروان فكانوا يستطيلون احياناً على رجال الدولة  
وأهل المكانة وربما تخرج منهم أحياناً بعض الفقهاء فوضعوا لهم أمثال  
تلك الاخبار تنقيصاً لهم وحطاً من مكانتهم عند الخلفاء والملوك وابعاداً  
لهم عن مناصب الدولة وانما ألجأهم الى نسبة هذه الاخبار الى عمر كونه كان  
رضي الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه شيء في الشرع وهذا بلا ريب  
بعد من أولئك الوضاعين تناهيا في ضعف الرأي لاسيما اذا علموا باحوال  
اهل التقى والعدل من الخلفاء ومعاملتهم الجميلة لاهل الذمة كعمر ابن  
عبد المزيذ ومن حدا في ذلك حدوه من الخلفاء وبالاخص الخلفاء من

بني العباس الذين كان أكثرهم متفقها في الدين واقفا على اخبار السلف  
كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وامثالهم ممن أتى بعدهم فكانوا  
يوسدون كثيراً من شؤون الدولة الى أهل الذمة ويقربونهم منهم لاسيما  
الاطباء والكتّاب بلا أدنى تخرج في الدين وأي حرج في الدين يمنع من  
محاسبة الذميين وعدم ايذائهم بمثل ذلك الامتحان المشين من كلام لوضاعين  
ومن وقف على اخبار ماسويه وحنين بن اسحق واضرابها مع المأمون  
والتوكل يعلم هذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر  
فكان القبط أرباب الكلمة العليا عند الخلفاء وكانوا كما نقل المقرئ  
يتولون دواوين الخراج ويركبون البغال الفارسة ويتصرفون باموال  
الدولة بل بلغ بالخلفاء ان كانوا يعطون القاب الشريف الخاصة بالعلماء  
والملوك وهي الالتاب المضافة الى الدين للاطباء والكتّبة من النصارى  
واليهود وما نذكره من هؤلاء ( الشيخ موفق الدين ابن البورى  
الكتّاب النصراني ) والحكيم ( موفق الدين بن المطران ) وغيرهما ممن  
لم تحضرنى أسماؤهم الآن :

هذا هو السبب الاول واما السبب الثاني لوضع تلك الاخبار فنشأوه  
نزوع بعض الامراء الى اجهاد الرعية من مسلمين وذميين بالضرائب ونكت  
عهود هؤلاء القديمة ولما لم يرو في الشريعة مخرجا لهم يتوصلون به الى  
الاستبداد بالرعية وتحميل الذمي فوق ما حدده الشرع من الخراج والجزية  
كاحملوا المسلم لاسيما والاخبار النبوية آمرة بالتوفاء معهم بالمهد والمحافظة على  
ما لهم من حقوق الذمة والجوار وانهم أهل ذمة الله وذمة رسوله -  
هدوا لاغراضهم السبيل بالايجاز الى بعض مقرئهم بوضع مثل ذلك الخبر

مقدمة لاستباحة أمتهانهم ثم إجهادهم بالضرائب يدلك عليه ما حدث في عهد  
 الروانين من الاجترار على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من  
 غير حقها كما استراه مبسوطاً في عمله ان شاء الله  
 على ان سيرة الصحابة ورجال الفتح في الصدر الاول مع أهل الذمة  
 وحدها كافية لدحض أمثال تلك الأقوال الواهية حتي أنهم اقتضوا بحسن  
 السيرة وجميل المجاورة والمعاملة ، الا يقوى عليه الحسام ، ويخرج عن طوق  
 عددهم القليل بالنسبة لبقية الاقوام<sup>(١)</sup> وحبك من أدبهم مع أهل الذمة  
 من الكتابيين ان ما روى عنهم من اخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا  
 فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع أنهم كانوا يعبرون عن مجوس  
 الفرس ووثني العرب قبل الاسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك : الروم  
 والقبط : مثلاً كأنهم الروم ، وقاتل القبط ونحوه . يؤيد هذا كتب

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم تجنب  
 ايذائهم بالقول أو الفعل خصوصاً عماله يدلك عليه ما ذكره في سراج الملوك في حكاية  
 طويلة لا محل لذكرها هنا وخلاصتها ان عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه  
 مرة فسأله عن أشياء ثم قال له عد الى عمالك فقال عمير أنشدك الله ان لا تردني الى  
 عملي فاني لم أسلم منه حتى قاتل لذي : أخزك الله : ولقد خشيت ان يخصني له محمد  
 صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول ( انا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته )  
 ولكن ائذن لي الى أهلي : فاذن له فأتى أهله الخ الحكاية  
 فاذا كان مثل عمير بن سعد يستعني من عماله لكلمة قالها لذي وخاف ان يخصمه  
 رسول الله عليها لانه قال « من ظلم ذمياً فانا خصمه يوم القيمة » فهل يسوغ المقل  
 ان يؤذي عمر وعماله الذميين بمثل جزائهم والركوب على الأكف ونحو ذلك من  
 أنواع الايذاء الذي لاشيء بالنسبة اليه قول عمير لذي : أخزك الله :  
 فاللهم انا نبرأ اليك مما كتبه الوضاعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم للمقل

التاريخ التي نقلت إلينا أخبار الفتح بالرواية كالطبري وأشباهه، ولو فرض وجود شيء من تلك الالفاظ فيها فإنه نزر يسير وهو من حشو النساخ وأما كتب المتأخرين أو المقلدين فإن أصحابها لم يراعوا فيها مراعاة السلف من الأدب وحسن الأداء لما وقر في نفوسهم من التمصّب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الإسلام لعلم أهل ذلك الصدر أن الإسلام جاء للتأليف والوثام، لا للتفريق بين الأقسام، وأن اختلاف الأديان لا يوجب الفرقة والخصام، لقوله تعالى « لكم دينكم ولي دين » ولأن القرآن نطق بأن أهل الكتاب أقرب مودة للؤمنين وذلك في قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » ولهذا سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني في حكاية هرقل مع الفرس وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى « ألم غلبت الروم » الآية فلتراجع في محلها هذا ما أردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين وانما أطننا الكلام في هذا الباب اظهاراً لبراءة عمر (رض) مما عزي إليه وتنبها لاولى النهى من المسلمين الى ان دينهم يأمر بمحاسبة الذميين وينهى عن مخاشنة الكتابيين وان مرض التمصّب الذميم انما طرأت اعراضه على الامة تدريجاً سيما على عقب الحروب الصليبية وان من آثار ذلك التمصّب القبيح ما يلاقه المسلمون لهذا العهد من ضروب الاهانة والسف من الدول المسيحية التي حكمت بعض الممالك الاسلامية ولم تراع في حكم المسلمين حقوق الانسانية ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية، والمسيحية والاسلام يبرآن الى الله من ظلم

البشر بعضهم لبعض ولكن ما الحياة والانسان مهما ترقى مداركه وسعى عقله فانه لا يزال يتقاصر دون الوصول الى مرتبة العلم الكامل الذي يجعل البشر كاهم بالاضافة الى وجوب التعاون والاجتماع سواء، وان اختلفوا في المذاهب والاهواء، اذ كل امرئ مسؤول عن اعتقاده عند الله، وانه سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها، ولكن: انها لا تسمى الابصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور: اه

### باب شبهات النصارى وحجج الاسلام

#### سوريا والاسلام

سوريا في حاجة شديدة الى اتفاق عناصرها لاسيما المسلمون والنصارى فانما لم يتفقوا فلا عمران في سوريا ولا حياة، المسلم في سوريا يحتاج الى مسالمة النصراني وربما كان هذا احوج منه الى هذه المسالمة، النصارى في سوريا اجدر من المسلمين بالسعي في الوفاق والمسالمة لانهم سبقوهم الى العلم فكان يجب ان يسبقوهم باحساس حاجة بعضهم الى بعض، ولأن الحاجة اذا لم تكن متساوية في الفريقين فالاضعف يكون هو الاحوج كما اشرنا اليه آنفا، وهذا ما آتت من أكثر فضلاء النصارى الذين ذكروا في المسائل الاجتماعية

نرى عقلاء المسلمين وطلاب الاصلاح فيهم يكتبون في صحفهم ومؤلفاتهم ما يقع المسلمين بأن دينهم يرشدهم الى محاسنة أهل الكتاب ومسالمتهم ويفرض عليهم مساواتهم في الحقوق ويحرم عليهم ايذاءهم ويخص النصارى بأنهم أقرب مودة الى المسلمين من غيرهم، وبأن مصلحة البلاد تقضي مع ذلك باتفاقهم في الاعمال الدنيوية وتعاونهم في الكسب، الى غير ذلك من الارشاد، وبيننا نحن نطبع تاريخ رقيق بك العظم وفيه ما رأيت (في التبذة السابقة) من الكلام الحسن في أهل الذمة اذا نحن بحريّة (الناظر) ترد علينا مقالات غريبة عن موضوعها عنوانها (سوريا والاسلام) ينفتح فيها صاحبها من سموم التصبب الاعمى والتدح في الاسلام والمسلمين ما يحول دون